العلاّمة العفكاوي النجفي
وجهوده الإصلاحية في حوزة النجف الأشرف

أ.م.د. إيمان صالح مهدي*

● المقدمة:

لا يخفى على أحد ما لهذه المدينة الدينية والعلمية والثقافية من أثر في نشر العلوم والمعارف، فقد كان لمدارسها ومكتباتها وحوزتها الدينية الأثر الأكبر في رفد الحركة العلمية بقوافل من العلماء و الأدباء و الشعراء و المفكرين والكتّاب الذين كانت لأغلبهم وقفات مشرفة يشهد لها القاصي والداني، فالنجف أخذت على عاتقها القيام بأعباء كل علم، ولاسيما علمي الفقه والأصول فهي السباقة فيهما والمؤسسة لهما فضلا عن العلوم الأخرى، فهي حازت الرياسة العلمية، والزعامة الدينية، فكثر ازدحام أهل العلم ورجال الأدب من كل حدب وصوب، تسبق افكارهم أقدامهم، وتتسابق أقلامهم في حلبة التصنيف والتأليف فشقت عباب كل علم بفكر صائب وذهن متقد، ولا سيما في القرن الثاني عشر الذي ازدلف فيه العلماء إلى النجف الأشرف من كل بقاع الارض يحثون الركاب إليها لتتلاقح الأفكار وتتبادل الآراء لينتج عنها فيما بعد ما هو أقوم وأكثر أبداعا ليضيف تمييزا آخر لتلك البقعة المباركة في كل الميادين .

ومن العلماء الذين وفدوا على تلك البقعة المباركة، لينهل منها ويدلو بدلوه فيها هو العلامة خضر بن شلال العفكاوي النجفي، والذي سيسلط البحث الضوء على سيرته العطرة ، وجهوده في حوزة النجف الأشرف .

* جامعة بغداد/ مركز إحياء التراث العلمي العربي

لذلك سيقسم البحث على قسمين هما الأول:حياة المؤلف، والثاني جهوده الاصلاحية في الحوزة .

المبحث الأول: حياة المؤلف

● **أولاً: اسمه وولادته، ونسبه:**

هو الشيخ خضر بن شلال بن حطّاب الباهلي آل خدّام العفكاوي النجفي، ولد في عفك سنة ١١٨٠ هـ .

ينتسب ابن شلّال إلى آل خدام، وهم فخذ من آل شيبة الذين هم من باهلة، وباهلة قبيلة من قيس عيلان و ـ باهلة ـ اسم امرأة من همدان كانت زوجة معن بن أعصر بن سعد بن قيس عيلان فنسب ولده إليها، وقولهم: باهلة بن أعصر ؛ إنما هو كقولهم: تميم بن مرة .فالتذكير باعتبار الحي،والتأنيث للقبيلة،ولا فرق بين كون الاسم في الأصل لرجل أو امرأة[١].

وينقل صاحب أعيان الشيعة: وفي كتاب الأنساب للسيد مهدي القزويني آل شيبة قبيلة من عفك باهلة[٢].

و العفكاوي نسبة إلى عفك بعين مهملة مكسورة وفاء مفتوحة وتُسَكَّن عند النسبة، ومدينة عفك وتلفظ باللهجة المحلية عفج هي مركز قضاء عفك التابع لمحافظة القادسية (الديوانية) الواقعة في إقليم الفرات الأوسط من العراق أو جنوب وسط العراق. وتبعد عن مدينة الديوانية حوالي ٢٥ كم شمال شرق، وعن بغداد العاصمة بحوالي ١٧٠ كم جنوبا.

● **ثانياً:هجرته إلى النجف**

هاجر من عفك إلى النجف للالتحاق بالحوزة العلمية، فدرس فيها حتى أكمل العلوم العربية وحضر الدروس العالية على مشايخ عصره، ولم تذكر المصادر التي، ترجمت له أنه ترك النجف أو عاد إلى عفك أو إلى أي مدينة أخرى فكأنه وجد ضالته في تلك البقعة المباركة .كما أغفلت المصادر عن ذكر عمره حال دخوله النجف الأشرف، والذي يبدو لي أنه دخلها وهو في العشرينات من عمره معتمداًعلى سنة والدته وتتلمذ على السيد مهدي بحر العلوم (قدس الله سره)، فتعلم فيها المبادئ وأتقن الأوليات، وجدّ في تحصيل العلم .

● **ثالثاً: نشأته العلمية، شيوخه وتلامذته**

ما هجرة الشيخ خضربن شلال من مدينته عفك إلى النجف الأشرف إلا لتحصيل العلم، فالتحق بحوزتها وتلقى العلم على علمائها والتلمذة على شيوخها المعروفين في زمنه، فدرس فيها حتى أكمل العلوم العربية وحضر الدروس العالية على مشايخ عصره، حتى برز في الفضل بين معاصريه،وأصبح في طليعة فقهاء عصره الأكابر،ومراجعه المقدمين، ومن أشهر شيوخه:

١ـ السيد محمد مهدي الطباطبائي المعروف بالسيد بحر العلوم (١١٥٥-١٢١٢هـ) الذي أصبح صاحب سره.

٢ـ الشيخ جعفر الكبير صاحب (كاشف الغطاء) (١١٥٦ هـ – ١٢٢٨ هـ) والذي أصبح الشيخ خضر من أجل تلاميذه .

٣ـ الشيخ موسى ابن الشيخ جعفر كاشف الغطاء(١١٨٠-١٢٤١ هـ).

٤ـ الشيخ علي ابن الشيخ جعفر كاشف الغطاء(١٢٥٣ هـ) .

٥ـ الشيخ موسى آل محبوبة[٣].

٦ـ الشيخ علي آل محبوبة.

● **تلامذته**

تتلمذ عليه العديد من الأعلام الذين صاروا فيما بعد شيوخا لهم مكانتهم في ميادين العلم والمعرفة، أجاز لبعضهم رواية بعض كتبه،ومنهم:

١ـ الشيخ عبد الكريم الكرماني النجفي، وحصل منه على إجازة علمية في جمادي الأولى عام ١٢٤٧ هـ، متوسطة يروي فيها عن الشيخ الأكبر الشيخ جعفر كاشف الغطاء وعد فيها جملة من تصانيفه، التحفة الغروية في شرح اللمعة الدمشقية، جنة الخلد، معجز الامامية، أبواب الجنان مصباح الرشاد، نجم الهداية، هداية المسترشدين، مصباح الحجيج، مصباح المتمتع، عصام الدين، وغير ذلك [٤].

٢ـ السيد محمد بن الحسين بن محمد رضا التنكابني[٥].

٣ـ السيد علي ابن السيد إسماعيل الغريفي الموسوي البحراني(ت ١٢٤٦هـ)[٦].

٤ـ الشيخ حسن بن الشيخ أحمد بن الشيخ محمد المحسني الإحسائي الفلاحي(١٢١٣ ١٢٧٢ هـ)[٧].

● **رابعاً: مؤلفاته**

ترك الشيخ خضر (رحمه الله تعالى) العديد من المؤلفات [٨]، التي تكشف بصورة واضحة عن المقام العلمي الذي كان يتمتع به في مدرسة النجف الأشرف في القرن الثالث عشر الهجري فكانت آثاره جليلة إلا أن من المؤسف أنها لم تر النور، فما زالت تنتظر من ينفض عنها غبار الزمن ليحققها وليخرجها إلى عالم الطباعة والنشر، وهي كالآتي:

أولًا: في الفقه والأصول

١- التحفة الغروية في شرح اللمعة الدمشقية وقد وصل في شرحه إلى كتاب الحج[٩].

٢- رسالة في عمل المقلِّدين .

٣- رسالة في الفقه .

٤- عصام الدين: ذكره في إجازته للشيخ عبد الكريم الكرماني عام ١٢٤٧ هـ .

٥- كتاب سحر الإمامية[١٠].

٦- كتاب معجز الإمامية .

٧- مصباح الحجيج .

٨- مصباح الرشاد .

٩- مصباح المتمتع في مناسك حج التمتع.

١٠- مختصر شرح اللمعة من أول الطهارة إلى تمام الصلاة .

ثانيًا: علم الكلام وأصول الدين

١- جنة الخلد في أصول الدين وفروعه وهو رسالة عملية [١١].

٢- كتاب المعجز .

ثالثًا: الأدعية والزيارات

١- أبواب الجنان وبشائر الرضوان، وهو في الزيارات وأعمال السنة وسائر الأحراز والأدعية ويعرف باسم (مزار الشيخ خضر شلال) وقد رتبه على مقدمة في فضل مكة وسائر المشاهد وأبواب ثمانية تشبيهًا للكتاب بالجنان وترغيبا في اتخاذه جُنَّة عن النيران وقد تفرعت من كل باب عدة فصول وفرغ منه في شعبان عام ١٢٤٢ هـ [١٢]. قال فيه الشيخ خضر:إن أبواب الجنان هذا كتاب لم يسمح الدهر بمثله[١٣].

٢- كتاب الأدعية، أو مجموعة الأدعية .

٣- هدية المسترشدين (هدية الزائرين).

٤- نتيجة الهداية .
٥- نجم الهداية وهو شرح على كتاب هدية المسترشدين .
أفرد الشيخ المحقق أغا بزرك الطهراني في كتابه الذريعة عنوان (المزار) ككتاب مُستقل عن كتاب أبواب الجنان، لكن مصادر أخرى أشارت إلى أن المزار أو مزار الشيخ خضر هو اسمٌ متداول لكتاب أبواب الجنان وليس كتاباً آخر.

● خامساً: ذريته

لم يُعقّب الشيخ خضر (رحمه الله تعالى) بعده إلا بنتاً واحدة تزوّجت من السيد سلمان بن هاشم الرفيعي وهو أحد أشرافهم سادن الروضة الحيدرية، وكانت من الكمال والإيمان بمراتب، وأنجبت منه: السيد عزيز، والسيد كريم، والسيد هاشم، وكل واحد من هؤلاء له أولاد.[١٤] وللشيخ أخ فاضل أديب وهو الشيخ محمد شلال، والد الشيخ موسى شلال[١٥].

● سادساً: كراماته

فالكرامة في اللغة:اسم يوضع للإكرام، كما وضعت الطاعة موضع الإطاعة، ويقال:كرم الشيء الكريم كرما وكرّم فلان علينا كرامة [١٦].
الكرامة في الاصطلاح: هي ظهور أمر خارق للعادة من قبل شخص غير مقارن لدعوى النبوة، فما لا يكون مقرونا بالإيمان والعمل الصالح يكون استدراجا، وما يكون مقرونا بدعوى النبوة يكون معجزة [١٧].
كان شيخنا العفكاوي من الذين أظهر الله تعالى على أيديهم الكرامات الواضحات، وما ذلك إلا لقوة إيمانه ويقينه، وقد ذكرت مصادر ترجمته أخباراً عن كراماته، منها:

١-كرامة الاستسقاء

اشتكت النجف الأشرف عاماً من الجدب والجفاف فلجأ الناس إلى كبير علمائهم في عصره وهو العلامة الشيخ خضر شلال .
قال الشيخ النوري: حدثني الثقة الصالح التقي السيد مرتضى النجفي،قال: حبست السماء قطرها في بعض السنين،فضاق الأمر على الناس،واشتدت الحال بالمواشي؛ فخرج الشيخ للاستسقاء في جماعة كبيرة من الرجال والنساء والصبيان وكنت معهم،فأتينا معه إلى المقبرة المعروفة بوادي السلام خارج النجف الأشرف فصلى ودعا،فأمنا وتضرعنا،ولما قرب أوان رجوعنا إذا بجماعة من العامة من أهل بغداد أتوا من كربلاء، وفيهم بعض القضاة الكبار والمفتين من كلاب النار، وقاضي القضاة الذي كان مقيما في بغداد من قبل سلطان الروم،وقد عزل، وأتى إلى المشهد ليزور ويودع ويرجع .
فلما قربوا من المشهد وصعدوا على التل المماس بسور البلد المشرف على القبور وشاهدوا الاجتماع والغوغاء وأصوات الباكين وتضرعهم، سألوا عن القضية ؟ فأُخبروا بسببه،فوقفوا مستهزئين مستنكرين متعجبين من احتمال استجابة الدعاء من الروافض الذين هم عندهم من الأشرار الذين يسألون عنهم في النار قائلين: **(مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ* أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ)**[١٨]. وقيل لهم: إن لهم شيخا هو المقدم في السؤال والدعاء الذي يرجون بدعائه كشف ما بهم من البؤس والأدواء،فأخذوا يضحكون

ويسخرون،ونزل القاضي وأمر ببسط فراشه فقعد عليه واشـتغل بشرب الغليان وسبِّ أهل الإيمان .

فاطلع الشيخ بما هم فيه من الهزءِ والمسخرة والسـب، وكان الناس آيسين متوقعين رجوعه ورجوعهم، فتغيّرت حال الشيخ وهاج غضبه، وتحركت غيرته ونادى الناس: إلى أين تذهبون وهؤلاء الكلاب والخنازير يستهزئون بنا؟ ولا نرضى بـأن نكون ناكسي الرؤوس عندهم؛ فو صاحب هذه القبـة الشريفة لا نرجع إلى البلد إلّا أن نسـقى هـذه السـاعة أو نتفرق في هذه الـبراري والقفـار، فنموت عـن آخرنا؛ فوقف الناس فأمر الناس بكشـف الرؤوس فكشفوا وصرخـوا جميعا صرخة واحـدة، فقام فيهم وقال: يا رب كنت أستسـقي إلى هذه السـاعة متضرعا مستكينا، والآن وقد اطلع علينا هؤلاء النُّصاب أستسقي مستحقاً، فو عزتك لا ندخل البلد إلا بعد الاستجابة،ولا نرضى بافتضاحنا بينهم في بلادهم .

قـال: فو اللـه الذي لا إله إلا هو مـا تمَّ كلامه إلا وقد ظهر سـحاب مقدار الكف، وما مضت خمـس دقائـق إلّا وملأ الأفـق ! فخرج الودق من خلالـه كالميازيب وأراد الناس أن يتفرقوا فمنعهم الشيخ، وقال: لا، حتى تبتلوا جميعا، واشـتد المطـر بحيث لـم يقدر القـاضي على الركـوب، وكان يتعجـب ويقـول: استسـقى أهـل بغـداد وكربـلاء، فمـا اسـتجيب لهم ! فكيف اسـتجيب لهؤلاء الروافـض ؟فقيل له: إنك صرت سـبب الإجابة بمـا فعلت من الهزء والسـب، فأحب الاجتماع مع الشيخ، فاجتمع، فقيل: إنه رجع إلى الحق، والله العالم[١٩].

أقـول: وهذه كرامة كبيرة لـه من الله تعالى لا تعطى إلا لمن كان وجيهاً عند الله، فاسـتجابة الدعاء والقبـول عند الله تعالى مرتبة عالية لا يحصـل عليها إلا من أخلص لله تعالى في سره وعلنه ويؤكد ذلك الحديـث القدسي الشريف: « عبـدي أطعنـي تكن مَثَلي تقـول للشيء كن فيكـون» يعني تكون لك القدرة التي يعطيك اللـه اياها إذا كنت مطيعـا لله ذائبا فيه تعالى تكـون لك كرامة عنده وهي اسـتجابة الدعاء في كل وقـت وحين . وشـيخنا العفكاوي كان مثالا أعلى يحتذى به في يقينه وإيمانه وتقواه وثقتـه بالله تعالى ويضرب بـه المثل في الزهد والورع والعبادة فكان من الأخيار الأبرار.

٢-القلم المهدى له من أمير المؤمنين علي (عليه الصلاة والسلام)

قال الشـيخ أغا بزرك الطهرانـي (رحمه الله تعالى): ذكرنا ما سمعناه عن بعض المعاصرين من أن الشـيخ خـضر (رحمه اللـه تعالى) قد كتـب كتابه أبـواب الجنان بالقلـم الذي كتب بـه جملة من مجلدات التحفة وهو القلم الذي أعطـاه إياه أمير المؤمنين (ع) في المنام فوجده بيـده بعد الانتباه: فقلنـا إن ذلك من كراماته قدس الله سره ولكن رأيت بخط يده ما يدل على أن الرؤيا ليست له وإنما رواها عن بعض إخوانه، فهـو في كتابه التحفة الغروية قال في أواخر كتاب الميراث منه: «وقد عرض على أمير المؤمنـين (ع) بعـض إخوانـي في العالم الذي من رآهم فيـه فقد رآهم جملة من طهارة هذا الشرح فأعطاني بعد أن نظر فيه بعين الرضا أشـياء نفيسـة منها قلم لم ير الراؤون مثله» وهو صريح الدلالة على أن الرائي أحد إخوانه

المؤمنين وأن اعطاء القلم في عالم الرؤيا لا في اليقظة؛ وببركة هذا القلم المعطى له في الرؤيا التي راها بعض إخوانه سهل الله عليه تأليف عدة مجلدات في الفقه في مدة غير طويلة[٢٠].

٣-علمه وهو ميت بطلب المجاهد شيخ الشريعة الأصفهاني (ت ١٣٣٩هـ) قال الشيخ المجاهد شيخ الشريعة الأصفهاني: كنت أيام دراستي ضعيف الحال، وإذا احتجت إلى مراجعة كتاب لم أتمكن من شرائه أذهب إلى شيخنا الأستاذ الفقيه الأكبر الشيخ محمد حسين الكاظمي (رحمه الله) صاحب (البغية) فأستعيره منه،فاتفق مرة أن احتجت إلى بعض الكتب، وكان الوقت ظهرا وفي أيام الصيف، فقصدت دار الاستاذ، فلما مررت على مقبرة الشيخ خضر فكرت في الأمر، وخشيت أن يكون الشيخ الأستاذ نائما، فوقفت عند القبر وقرأت سورة (يس) رجاء أن يفوت الوقت قليلا، ولئلا يكون رواحي في ذلك الوقت مزعجا للشيخ .

ولما انتهيت منها ذهبت إلى دار الأستاذ،فطرقت الباب ولم يجبني أحد،فتأخرت قليلا ثم طرقتها من جديد،وإذا بالشيخ الأستاذ نفسه وبيده الكتاب الذي أنا طالبه،فاستغربتُ الحالة، وقلت للشيخ: من أعلمك أنني على الباب؟ ومن قال لك إني أريد هذا الكتاب؟

فقال: كنت نائما، فرأيت الشيخ خضر العفكاوي في عالم الرؤيا فقال لي: سيجيؤك فلان وهو بحاجة إلى الكتاب الكذائي فقم وهيأه له، فانتبهت وذهبت إلى المكتبة، فأحضرت الكتاب، ولما طرقت الباب في المرة الأولى كنتُ أفتش عنه بين الكتب، فذهلت ونقلتُ له ما كان من أمري مع الشيخ أعلى الله مقامه[٢١].

٤-صاحب سر السيد مهدي بحر العلوم(قدس الله سره).

نقل الشيخ خضر (رحمه الله) بنفسه حادثة له مع السيد بحر العلوم، حيث أنه لما وصل الباب الخامس من كتابه خذا (أبواب الجنان) إلى فضل زيارة العسكريين (عليهما السلام) وذكر زيارتهما ووداعهما، قال: « نعم، لا ريب في ارجحية التأخر عن ضريح الهادي (عليه السلام) بمقدار ذراع أو أزيد عند زيارته (عليه السلام) لِما بلغنا من أنه مقدم على الشباك المنصوب في عصرنا، ويرشد إليه أنّي تشرفت بزيارته مع جماعة من العلماء والصلحاء وفيهم من يحمل العلم من العلويين،فأخبرني بما يقتضي بتشويشه واضطرابه من أنّه وقف قريبا من الضريح المشرّف مستدبرا للقبلة، وإذا بصوت من الضريح يأمره بالتنحي عن موقفه،وما ذلك إلّا لذلك»[٢٢].

ويظهر من القرائن العديدة أن المراد بالعلوي الحامل للعلم هو السيد مهدي بحر العلوم، ثم حكى ما سمعه صريحا من شيخه وفقيه عصره الشيخ عبد الحسين الطهراني طاب ثراه من أنه السيد بحر العلوم، ويظهر من أخبار السيد له خاصة دون سائر من معه من العلماء أنه كان من أصحاب سره [٢٣].

وهذه منزلة للشيخ أكبر من أن ينالها نائل أو يخدشها خادش، وكراماته إلى اليوم تناقلها الناس، فسلام عليه يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حيّا.

●سابعاً: أقوال العلماء فيه

وقد عرف الشيخ خضر بن شلال بتقواه وزهده وكان يتمتع بالصفاء والبساطة،. وأنه كان من العلماء المجتهدين المقلَّدين وأشارت المصادر إلى علميته وفقهه، وزهده وعبادته، كثير الأُنس بمسجد الكوفة، لذلك ترك أثرا طيبا في نفس كل من عرفه، من العلماء وبسطاء الناس،لذلك قيل فيه:

وصفه الميرزا النوري بقوله: «الشيخ المحقق الجليل والعالم المدقق النبيل صاحب الكرامات الباهرة المعروفة كان من أعيان هذه الطائفة وعلمائها الربانيين الذين يضرب بهم المثل في الزهد والتقوى واستجابة الدعاء»[٢٤].

وقال السيد الأمين في الأعيان: «كان عالماً فقيهاً زاهداً ورعاً تنسب إليه كرامات، ومن أجلّ تلاميذ الشيخ جعفر صاحب كاشف الغطاء له كتب قيمة ومتنوعة توفي سنة ١٢٥٥ هـ»[٢٥].

قال عنه الشيخ حرز الدين في المعارف: «العلاّمة العابد والتقيّ الزاهد الورع، وممّن يُستسقى به الغمام إذا منعت السماء قطرها . حريٌّ بأن يُوسَم بمعجز الشيعة وحافظ الشريعة . وروى الكثيرُ عنه الكرامات والصفات العالية» [٢٦] .

يقول الشيخ أغا بزرك الطهراني: «أنه كان من أهل التقى في عصره وأبرزهم في الزهد والصلاح وسلامة الباطن»[٢٧].

وقال الشيخ آل محبوبة: «كان عالمًا عاملًا فقيهًا أصوليًا ثقة عدلًا صادقًا صافي القلب خيّرا ديّنا ورعا زاهدا عابدا» [٢٨].

يقول الشيخ عباس القمي: « أنه عالم فاضل جليل وفقيه نبيه نبيل ومحدث ماهر»[٢٩].

● ثامناً: وفاته

توفى الشيخ (قدس الله سره) وقد ناهز الثمانين سنة[٣٠]في مدينة النجف الأشرف عام ١٢٥٥ هـ - ١٨٣٩ م . ودفن فيها، وقال الشيخ آل محبوبة عن قبره: «وله مرقدٌ ظاهرٌ مشهور يُزار ويُتبرّك به عند ابتداء شارع السلام مقابل مدرسة الحاج ميرزا حسين الخليلي الكبيرة يقرأ له الفاتحة الرائح والغادي»[٣١].

وكان قبره مشهوراً ومعروفاً ويُزار في (محلة العمارة) بداره الكبيرة في غرفة منها مطلة على الشارع المعروف بشارع السلام، وفي السنوات الأخيرة ١٩٨٩م فتحت الدولة شارعاً جديداً في النجف الأشرف فهدّمت الكثير من مقابر العلماء وكانت منها مقبرة الشيخ خضر شلاّل فأخرج من قبره طريّاً لم تغيّر المائَة والخمسون سنة منه شيئاً فشُيّع تشييعاً عظيماً اشترك فيه جلّ أهل النجف وتنازعت عدّة عشائر في أن تحظى بدفنه في مقابرها مدعية معه الرحم والقرابة [٣٢].

وشاهد قبره مكتوب عليه اسمه،وسنة وفاته، وبيتين من الشعر في مدحه رحمه الله تعالى:

هو الخِضرُ في فيه ماء الحياة
وفي فضله تشهد الكائنات
فكم من سجايا له صالحات
لحشر الورى في الملا باقيات[٣٣]

المبحث الثاني: جهوده الاصلاحية .

بعد أن وقفنا في المبحث الأول على سيرة الشيخ الجليل وتعرفنا على مقامه العالي، ومكانته الكبيرة عند الخاصة والعامة، وعلمنا قربه من الله تعالى وما خصه به من

كرامـات، ومـا حصوله عـلى هذا القـرب إلا بطرائـق متعـددة و وسـائل متبددة،نال بها قرب معشـوقه الواحد الأحـد، وكان أوضحها سـبيلاً و برهاناً، وأعلاها شرفـاً ومكاناً، ذلك الطريق الذي سـلكه رابـع الأئمة المعصومين (عليهم الصلاة والسلام) الإمام زين العابدين عليه السلام ألا وهو الدعاء فهو المنهج العلمي والعملي ذو الآثار المتعددة لشموليته واتساعه، فهو للدنيا والآخرة، ولأهميته البالغة أكد عليه اللـه تعالى في أكثر من موضع في كتابه العزيز كقوله تعالى:**(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ)**[البقرة /١٨٦]، وقوله تعالى: **(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ)** [النمل/٦٢]وقولـه تعالى:**(فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِه الْكَافِرُونَ)** [غافر/ ١٤]،وقوله تعالى: **(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّـي لَـوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَـدْ كَذَّبْتُمْ فَسَـوْفَ يَكُونُ لِزَامًا)**[الفرقان /٧٧] وغيرها كثير .

وأكد رسـول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على أهمية الدعـاء في أكثر من حديث شريف، كقولـه (صلى الله عليه وآله وسـلم) « الدعاء مفتـاح الرحمـة، والوضـوء مفتـاح الصلاة، والصـلاة مفتاح الجنـة»[٣٤]، وقوله: « الدعاء جُنُـدٌ من أجناد الله مُجندٌ يردُ القضاءَ بعد أن يـبرم»[٣٥]، وقوله: « الدعاء هـو العبادة»[٣٦]، و«الدعاء يرد البلاء، والدعاء سلاح المؤمن»[٣٧]. فهو سـلاح الأنبيـاء والمؤمنين،لإصلاح العباد والنفـس، فهـو يعلمنـا التـأدب والخضوع عنـد مناجـاة اللـه تعـالى، ويعلمنـا تجاوز الأفـق الضيـق للنفـس الإنسـانية وأنانيتها لأنـه يحث على شـمول الآخرين بـه والصفح عنهم والتجـاوز عن أخطائهـم، والدعاء لهم في قضـاء حاجاتهـم، فقـد ورد عـن الزهراء فاطمة(صلـوات الله وسـلامه عليها) أنها إذا دعـت تدعـو للمؤمنـين والمؤمنـات ولا تدعو لنفسها، فقيل لها، فقالت:الجار ثم الدار.

والنفـوس التـي تتربـى على هـذه المفاهيم سـتكون إنموذجا صادقا للسـلام والأمان في المجتمع، فهي تملك مقومات تؤهلها لإصلاح المجتمـع في كل وقت ومن أي مكان بعيداً كان أم قريبـاً، وإن المتتبـع لسـيرة الأئمة الأطهار (عليهـم الصلاة والسـلام) يجد نفسـه أمام سلسـلة مترابطة متصلة من المبادئ والأفكار والرؤى، فكل منهم يكمّل الآخر لذلك تعددت أدوارهم وتوحد هدفهم.

لذلك نجـد الإمام زين العابدين (عليه الصلاة والسـلام) اتخذ مـن الدعاء منهجـاً لإصلاح الأمـة، لأنه – الدعـاء- هو الأنسـب للإصلاح في وقتـه، والأوقع في النفـوس، فكانت أدعيته ومناجاته مصـدراً للعطاء ومشـعلاً للهداية ليس في وقت وجوده (عليه الصلاة والسـلام) فقط،بـل أصبحـت الصحيفـة السـجادية مدرسة لمن أراد أن يتعلم كل ما يرقى به نحو السمو والرفعة، وستظل كذلك لأن ما كان لله تعالى ينمو، يقول السـيد الشهيد محمد باقر الصـدر (قدس الله نفسـه الزكية) في تقديمه للصحيفة السجادية الكاملة: «... وأما الخطر الآخر: فقد نجم عن موجة الرخاء التي سادت المجتمـع الإسـلامي في أعقـاب ذلـك الامتداد

الهائل، لأن موجات الرخاء تعرّض أي مجتمع إلى خطر الانسياق مع ملذات الدنيا والإسراف في زينة هذه الحياة المحدودة وانطفاء الشعور الملتهب بالقيم الخلفية والصلة الروحية بالله تعالى واليوم الآخر وبما تضعه هذه الصلة أمام الإنسان من أهداف كبيرة...»، وهذا ما وقع فعلا، وتكفي نظرة واحدة في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ليتضح الحال. وقد أحس الإمام علي بن الحسين بهذا الخطر وبدأ بعلاجه واتخذ من الدعاء أساساً لهذا العلاج .وكانت الصحيفة السجادية التي بين يديك من نتائج ذلك . فقد استطاع هذا الإمام العظيم بما أوتي من بلاغة فريدة وقدرة فائقة على أساليب التعبير العربي وذهنية ربانية تتفتق عن أروع المعاني وأدقها في تصوير صلة الإنسان بربه ووجده بخالقه وتعلقه بمبدئه ومعاده وتجسيد ما يعبر عنه ذلك من قيم خلقية وحقوق وواجبات، أقول: قد استطاع الإمام علي بن الحسين بما أوتي من هذه المواهب أن ينشر من خلال الدعاء جواً روحياً في المجتمع الإسلامي يساهم في تثبيت الإنسان المسلم عندما تعصف به المغريات وشده إلى ربه حينما تجره الأرض إليها وتأكيد ما نشأ عليه من قيم روحية لكي يظل أميناً عليها في عصر الغنى والثروة كما كان أمينا عليها وهو يشد حجر المجاعة على بطنه .

وقد جاء في سيرة الإمام أنه كان يخطب الناس في كل جمعة ويعظهم ويزهدهم في الدنيا ويرغبهم في أعمال الآخرة ويقرع اسماعهم بتلك القطع الفنية من ألوان الدعاء والحمد والثناء التي تمثل العبودية المخلصة لله سبحانه وحده لا شريك له.

وهكذا نعرف أن الصحيفة السجادية تعبر عن عمل اجتماعي عظيم كانت ضرورة المرحلة تفرضه على الإمام إضافة إلى كونها تراثاً ربانياً فريداً يظل على مدى الدهر مصدر عطاء ومشعل هداية ومدرسة أخلاق وتهذيب، وتظل الإنسانية بحاجة إلى هذا التراث المحمدي العلوي وتزداد حاجة كلما ازداد الشيطان إغراء والدنيا فتنة.

فسلام على إمامنا زين العابدين يوم ولد ويوم أدى رسالته ويوم مات ويوم يبعث حياً»[٣٨].

لكل ما تقدم يتضح لنا أن الشيخ خضر العفكاوي اتبع في إصلاحه منهج الإمام زين العابدين (عليه الصلاة والسلام)، إذ اتخذ من الدعاء وسيلة لإصلاح الناس، تنبؤنا بذلك أغلب مؤلفاته التي تتناول الدعاء والزيارة مبينة فضلهما، واهميتهما، وعلو مكانتهما، وبما أنه لم يصل إلينا من مؤلفات الشيخ خضر العفكاوي إلا كتابه أبواب الجنان وبشائر الرضوان، لذلك سيسلط البحث الضوء عليه.

أن أبواب الجنان هذا كتاب لم يسمح الدهر بمثله هذا ما قاله الشيخ خضر عن مؤلفه وذكر أنه كتبه بالقلم الذي كتب به جملة من مجلدات شرحه المسمى التحفة الغروية في شرح اللمعة الدمشقية وهو القلم الذي أعطاه إياه أمير المؤمنين(عليه السلام) في المنام فوجده بيده بعد الانتباه وذلك من كراماته قدس الله سره .

وكان فراغــه مــن شرح المــيراث في كتابه التحفــة الغرويــة سـنة ١٢٤٥، فيظهــر أن تأليف أبــواب الجنان كان قبل هــذا التأريخ، لوجود نســخة منــه ناقصة الآخــر في خزانة كتب الســيد أبي محمد الحسن صدر الدين، قال في أوله: «الحمد لله اللطيف بعبادة حيث أمرهــم بعبادته إلخ « ذكر فيــه أنه لما بلغ في كتاب شرح اللمعة الموســوم بالتحفة الغروية إلى آخر كتاب الحج كان المناســب بيان زيارة النبي وســائر ألائمة(عليهم الســلام) وبعض الأدعيــة والأعمال فكتــب أبــواب الجنان هذا مترتبًــا على مقدمة في فضل مكة والمســجدين وســائر المشــاهد للائمة(عليهــم الســلام) ثم أبواب ثمانية تشبيها للكتاب بالجنان وترغيبا في اتخاذه جُنّة عن النيران وكل باب مرتب على فصول وذكر فهرس الأبواب والفصول في أوله هكذا:

(البــاب الأول) في فضــل الزيــارات وآدابها في فصلين.

(البــاب الثانــي) فيما يتعلــق بالمدينة في أحد عشر فصلًا.

(البــاب الثالث) في زيارة النجــف والكوفة في اثني عشر فصلًا.

(الباب الرابــع) في زيارة الحائــر الشريف في اثني عشر فصلًا.

(الباب الخامس) في زيارة الكاظمية وسامراء في أربعة فصول.

(البــاب الســادس) في الزيــارات الجماعــة والاستغاثات في سبعة فصول .

(البــاب الســابع) في أعمال الشــهور في اثني عشر فصلًا.

(الباب الثامن) في النوادر في ثلاثة فصول من أدعيــة اليوم والليلــة، والتعقيبات وغيرها من أعمال النيروز، وبعــض الأدعية والأحراز مما لا يختص بوقت خاص، وتوجد نسخة أخرى أيضــا ناقصة في بيت الســادة آل الخرســان في النجف والنســخة التامــة توجد في الخزانة الرضوية، فرغ منه من شعبان سنة ١٢٤٢.

ويضع شــيخنا المؤلف منهجاً لنفســه يســير عليــه في كتابــه ، فيقــول في أولــه: «وقد ذكر علماؤنا وأسلافنا ـ طاب مثواهم ـ جملة منها أي مــن الأعمال والآداب وما أرشــد الشــارع إلى التحصين بها في كتبهــم الفقهية الفرعية، وألفوا في نبذة منها كتبا مستقلات،مختصرات ومطولات،لكنها غير نقية مــن خلل،إما بذكر مالا مســتند له يســوغ به العمل،وإما بإطالة تبعث على طول الملل.

فحدثتني نفسي مــراراً أن أخلّد في ذلك مزاراً، أقتــصر فيه على ما تأكد اســتحبابه ... وصح التعويل عندي عليه ،بنســبه إلى أهل العصمة ومنبع الحكمة أو فتوى العلماء القدماء الذين ســجيتهم الفتوى بمعاني الاخبار ومضامين الآثار،أو ما اقتضاه الاحتياط مؤيدا بالاعتبار، غــير أنــه شــغلني عنه اشــتغالي بمــا لزمني تحريره مــن المســائل الشرعيــة في العبادات البدنية والمالي»[٣٩].

وقراءة متأنية في كتابه تطلعك على التزامه بما ألزم به نفسه من:

١-الاختصار وعدم الإطالة .

٢-نقل الصحيح من المرويات المعوّل عليها .

٣-لـم يذكر في كتابه ما ليـس مروياً عن أهل البيت (عليهم الصلاة والسلام).
٤-التركيز على ذكر المفيد والمهم من كل مطلب
٥-معاملة مرويات الزيارات والأدعية معاملة المرويات الفقهية من حيث الاستنباط، والابانة، والجمع، والطرح، والترجيح، وتحكيم القواعد والأصول، ثم الخروج بالنتيجة المتوخاة .
وعـلى هذا يعلق محقـق الكتاب قائلا: «وذلك مالم يسـبقه إليـه أحد،فإنه بذلـك زاوج بين الفقه والمـزارات، وفتح للعلماء وللفضلاء بابا جديدا في هذا المضمار، وإن كنا لا ننكر إكثاره الاستفادة من إفادات العلامة المجلسي (رحمه الله) في البحار وزاد المعاد وتحفة الزائر، لكن مـا أتى بـه هو شيء آخر تلحـظ فيه بصمات الفقيه بكل وضوح»[٤٠].

●هوامش البحث

(١) طبقات أعلام الشيعة:ج ١١/ص٤٩٨.
(٢) أعيان الشـيعة. محسـن الأمين، طبـع بيروت - لبنان، منشورات دار التعارف، ١٩٥٠.
(٣) ذكـر محبوبـة في مـاضي النجـف أن صاحـب الحصون قال بأنه حضر على الشيخ موسى ومن بعده على أخيه الشيخ علي، ج٢/ص ٢٦٥.
(٤) الذريعة:ج ١/ص٣٩٠ .
(٥) ينظر: مسـتدرك أعيان الشـيعة، السـيد حسن الأمـين ج٣/ص٢٥٠ وتراجم الرجال: للسـيد احمد الحسيني، ج١/ص ٥٠٢.
(٦) أعيان الشيعة ج٨/ص١٦٧.
(٧) الشيخ حسن بن الشـيخ أحمد بن الشيخ محمد المحسني الأحسـائي الفلاحي (١٢١٣ – ١٢٧٢هـ)، من أعلام الفلاحية بخوزسـتان، من مؤلفاته: تعليقة على جواهر الـكلام، وتعليقة عـلى الحدائق، وتعليقة على كفاية السبزواري، وتعليقة على مفاتيح الشرائع، وحاشـية على البحار، وحاشـية على وسائل الشيعة، وديوان شعر، ورسالة في أجوبة مسائل الشيخ محمد الصحـاف، ورسـالة في حل أخبار الطينة، والمسـائل الجبارية، ومناسك الحج، ومنظومة في أصول الفقه .
(٨) ينظـر: مقدمة المحقق لكتاب أبواب الجنان، كما ذكـر لي الدكتور محمـد عزيز عبد الأمـير الوحيد أن أغلب مؤلفات الشـيخ هي مازالت مخطوطات لم ير النـور منها إلا قليلٌ ككتابه أبواب الجنان، وأن العمل جار في قم المقدسة على إخراج كتابه التحفة الغروية .
(٩) يقـول الشـيخ الطهراني: أن كتـاب الميراث من اللمعـة الدمشـقية هو الذي سـماه بالتحفة الغروية ويقـع الكتاب في عدة مجلدات فرغ مـن المجلد الأول عام ١٢٢٩ هـ ومن المجلد الثاني عام ١٢٣٤ هـ ومن المجلد الثالث عام ١٢٣٦هـ . ويقول السيد الأمين:أنه فـرغ من كتاب الحج عـام ١٢٤٠هـ ووجد جزء منه في شرح كتـاب المواريث فرغ منه عام ١٢٤٥ هـ ولم يعلم أنه أتمه أملاءه ، ينظر: طبقات أعلام الشيعة:ج ١١/ص٤٩٧، أعيان الشيعة:ج٦/ص ٣٢٢.
(١٠) ذكـره آل محبوبـة في مـاضي النجـف وحاضرها:ج٢/ص ٢٦٥.
(١١) ذكـره آغا بـزرك الطهرانـي في ذريعته بقوله: رسـالة عملية مرتبـة على مطلبـين؛ أولهما في أصول الدين، وثانيهما في فروعه من الطهارة إلى آخر الصلاة وأشار الطهراني إلى أن الشيخ خضر قد أهدى نسخة مـن الكتاب إلى الفاضل المولى محمد الجاوجاني الذي كان في النجف في سنة ١٢٤٤ هـ . وقد فرغ من تأليفه في سـنة ١٢٤٣ هـ الذريعة ج ١٣ ص ٢٥٨، وينظر: طبقات أعلام الشيعة:ج١١/ص ٤٩٨.

(١٢) ينظر: الذريعة ج ٢٠/ص ٣١٨.
(١٣) المصدران السابقان.
(١٤) ينظر: طبقات أعلام الشيعة:ج١١/ص٤٩٦.
(١٥) ينظر: أبواب الجنان:مقدمة المحقق.
(١٦) لسان العرب: كرم.
(١٧) التعريفات:ص ١٤٩.
(١٨) سورة ص /الآية ٦٢ـ ٦٣.
(١٩) أبواب الجنان: مقدمة المحقق.
(٢٠) طبقات أعلام الشيعة:ج١١/ص ٤٩٧.
(٢١) المصدر نفسه: ج١١/ص٤٩٥.
(٢٢) أبواب الجنان: ص٢٠ـ٢١.
(٢٣) طبقات أعلام الشيعة:ج١١/ص٢٩٤.
(٢٤) أعيان الشيعة: ج٦/ص ٣٢٢.
(٢٥) المصدر نفسه:ج٦/ص٣٢١.
(٢٦) معارف الرجال في تراجم العلماء والأدباء: ج ٢/ص١٣٥.
(٢٧) طبقات أعلام الشيعة :ج١١/ص٤٩٤.
(٢٨) ماضي النجف وحاضرها: ج٢/ص٢٦٤.
(٢٩) الفوائد الرضوية: ص١٦٨.
(٣٠) ذهب السيد الأمين في الأعيان انه تجاوز السبعين، وكذلك الشيخ آل محبوبة.
(٣١) ماضي النجف وحاضرها:ج ٢/ص٢٦٥.
(٣٢) ينظر: النجفيات: ص ١٦٠ـ ١٦١ .
(٣٣) مراقد المعار:ج١/ص٢٧٦.
(٣٤) جامع الأحاديث:ج١٣/ص٣.
(٣٥) الجامع الصغير:ج٢/ص ١٥٦ رقم الحديث ٤٢٦٤.
(٣٦) سنن أبي داود:ج٢/ص٧٦ رقم الحديث ١٤٧٩.
(٣٧) طبقات المحدثين باصبهان والواردين عليها: ج٥/ص ٣٧ رقم الحديث ١٣٧١.
(٣٨) الصحيفة السجادية الكاملة: ص١٥ـ ١٨ .
(٣٩) أبواب الجنان: ج ٤٢.
(٤٠) المصدر نفسه: ص ٢٨.

● المصادر

- أبواب الجنان وبشائر الرضوان: تأليف الشيخ خضر بن شلال آل خدّام العفكاوي (ت ١٢٥٥هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ قيس بهجت العطار، مؤسسة عاشوراء، ط١، ٢٠٠٩م.
- أعيان الشيعة: للسيد محسن الأمين العاملي (١٣٧١هـ)، حققه وأخرجه وعلق عليه السيد حسن الأمين، منشورات دار التعارف،بيروت - لبنان، ١٩٨٣م.
- تراجم الرجال: تأليف السيد أحمد الحسني، مجمع الذخائر الإسلامية، قم إيران،(د.ت).
- التعريفات: للسيد الشريف علي بن محمد بن علي الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد،١٩٨٦م.
- جامع الأحاديث: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ) تحقيق عباس أحمد صقر وأحمد عبد الجواد، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٤م.
- الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير: تأليف الإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ)، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت .
- الذريعة إلى تصانيف الشيعة. آغا بزرگ الطهراني، منشورات دار الأضواء، طبع بيروت - لبنان ١٩٨٣ م.
- سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (ت ٢٧٥هـ) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت،(د .ت).

- الصحيفة السجادية الكاملة: من أدعية الإمام زين العابدين(عليه السلام)، تقديم سماحة الإمام السيد محمد باقر الصدر، مكتبة الشرق، باريس، ٢٠٠٩م.
- طبقات أعلام الشيعة: تأليف الشيخ أغا بزرك الطهراني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م.
- طبقات المحدثين باصبهان والواردين عليها: أبو عبد الله محمد بن جعفر بن حيان الأنصاري الأصبهاني (ت ٣٦٩هـ) تحقيق عبد الغفورعبد الحق حسين البلوشي، مؤسسة الرسالة، بيروت،١٩٩٢م.
- الفوائد الرضوية في أحوال علماء الجعفرية: تأليف الشيخ عباس القمي، تحقيق: باصر باقري بيد هندي، نشر مؤسسة بوستان، إيران، ط١، ١٣٨٥هـ .ق.
- لسان العرب: محمد إبن مكرم بن منظور (ت ٧١١هـ) الدار المصرية للتأليف والترجمة، طبعة مصورة عن طبعة بولاق،١٣٠٠ه.
- ماضي النجف وحاضرها: تأليف الشيخ جعفر الشيخ باقر آل محبوبة (ت ١٣٧٧هـ)، دار الأضواء، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٩٨٦م.
- مراقد المعارف: محمد أمين حرز الدين، دار المعارف، النجف،١٩٧١م.
- مستدرك أعيان الشيعة: السيد حسن الأمين العاملي، دار التعارف، بيروت، ١٤١٨هـ .ق .
- معارف الرجال في تراجم العلماء والأدباء: للشيخ محمد حرز الدين، تعليق محمد حسين حرز الدين، النجف الأشرف، ١٩٦٤.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار مطابع الشعب، القاهرة،١٣٧٨هـ.
- النجفيات: علي محمد علي دخيّل، بيروت ـ لبنان، ١٤١٤هـ .

The scientist Al-Afkawi Al-Najafi and his reform efforts in the Al-Najaf Al-Ashraf Hawza

By: Prof. Dr. Iman Saleh Mahdi
(Center of revival of Arabic science Heritage)
University of Baghdad

Abstract

This research deals with the scientists who came to the Al-Najaf Al-Ashraf into Al-Hawza Al-ʾIlmiyya that had the greatest impact on supplementing the scientific movement with convoys of scholars, writers, poets, thinkers and writers in various fields of science, And the scientists Khidr Bin Shallal Al-Afkawi Al-Najafi was one of the most prominent scholars who will shed light on his biography Because of its remarkable role in Al-Hawza, The research divided his work into two studies, the first deals with the life of the scholar and the second is concerned with his reform efforts in the Al-Hawza.